الرسوم الكاريكاتورية :

الجغرافية السياسية للغيظ [١]

✍ **أوليفيي روا** [٢]

ترجمة : ذ . رشيد أبو ثور

غالباً ما يقدم النـــزاع حول الرسوم الكاريكاتورية الدانماركية ، على أنه "صدام للحضارات" بين الغرب اللبرالي والإسلام الرافض لحرية التعبير ؛ غير أن التمسك بهذه الأطروحة ينم عن كثير من الجهل ، إن لم يكن كثير من النفاق . فلقد أضحت حرية التعبير في كل الدول الغربية محدودة بضابطين : القانون ، ونوع من الإجماع الاجتماعي : فمعاداة السامية يعاقب عليها بموجب القانون ؛ وكذلك المس بالطوائف الدينية الأخرى : ففي سنة ٢٠٠٥م ، تمكنت الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية من الحصول على إزالة صورة إعلانية استعملت رسماً لعشاء المسيح ، لكنها وضعت مكان الأنبياء نساء نصف كاسيات . وهذا تماماً ما تقوم به الجمعيات الإسلامية اليوم . فما هي الصحف التي نشرت الصورة الإعلانية المدانة ، انطلاقاً من حرية التعبير ؟ هناك كذلك سقف غير قابل للتسامح في الرأي العام : فلن تنشر اليوم أية صحيفة محترمة مقابلة مع ديودوني [٣] Dieudonné, ، رغم أن القضاء لم يدنه بعد بمعاداة السامية . ولن تنشر صحيفة كبرى صور كاريكاتورية تسخر من العمي أو الأقزام أو الشاذين جنسياً أو الغجر ، خشية أن توصم بافتقادها للذوق السليم أكثر من خشيتها من المتابعات القضائية (غير أن بذاءة

(1) صحيفة لوموند : ٢٠٠٦/٢/٨م

(2) أوليفيي روا Olivier Roy ، باحث ومدير البحوث في المركز الوطني للبحث العلمي بفرنسا ؛ ولقد نشر مؤخراً كتاب بعنوان La Laïcité face à l'islam, Stock, 2005 .

(3) للمزيد من المعلومات plus d'info http ://lesogres .org/article .php3?id_article=175

الذوق يمكن قبولها بالنسبة للإسلام لأن الرأي العام أكثر استعداداً للخوف المرضي من الإسلام (l'islamophobie) ، والذي غالباً ما يشمل في الواقع رفض المهاجرين) .

فالذي يصدم شعور المسلم العادي ، ليس هو رسم الرسول بقدر ما هو الكيل بمكيالين . فلقد كانت احتجاجات المسلمين في أوروبا ، باستثناء بعض المثارين الذين يتاجرون بما حدث ، معتدلة ، وهي نفسها من قبيل حرية التعبير . ومما لا شك فيه أن هذه الاحتجاجات تندرج بصفة عامة ، ضمن النقاش الكبير الذي يعره الغرب اليوم : إلى أي حد يجب على القانون أن يحمي مجالاً مقدساً ، سواء تعلق الأمر بالتجديف ، أو بإنكار المحرقة أو بالذاكرة الجمعية ، أو باحترام الآخر ؟ ولا عجب أن يجد رجال الدين المحافظون ، المسيحيون واليهود والمسلمون ، أنفسهم باستمرار جنباً إلى جنب للمطالبة بوضع حدود لحرية الإنسان ، سواء تعلق الأمر بقضايا الإجهاض أو الزواج المثلي أو بأخلاقيات البحث البيولوجي أو بالتجديف . ولا غرابة أن يعرب المؤتمر الإنجليكاني والحاخامية الكبرى ومجمع الكرادلة البروتستانتي ، عن تفهمهم لغيظ المسلمين . فهذا النقاش ليس مواجهة بين الغرب والإسلام ، إنه قائم داخل الغرب نفسه .

فما هو إذن مصدر هذا العنف في قضية هذه الرسوم الكاريكاتورية ؟ لا يجب هنا أن نتهرب من رؤية ما لا يعجبنا . تبين خريطة الهيجان والرفض الشعبي الذي حصل ، بأن البلاد التي حدثت فيها أعمال عنف هي التي لنظامها ولبعض القوى السياسية فيها حسابات تود تصفيتها مع الأوروبيين . لقد تم توظيف العنف من طرف الدول والحركات السياسية التي ترفض تدخل الأوروبيين في عدد من الأزمات بالشرق الأوسط .

إنا نؤدي ثمن نشاط دبلوماسي متزايد ، غير أنه لا يخضع لنقاش عام . كان تقديم النظام السوري نفسه كمدافع عن الإسلام ، سيكون مثاراً للضحك لولا العواقب المأساوية التي حصلت . هل يعقل أن يجد نظام أباد عشرات الآلاف من الإخوان المسلمين ، نفسه في طليعة المدافعين عن الرسول ؟! فلا يتعلق الأمر هنا إلا بمناورة سياسية صرفة ، تستهدف العودة من جديد إلى لبنان بالتحالف مع كل الذين يشعرون بأن السياسة الأوروبية تهددهم أو تتجاهلهم . عند التدخل الأمريكي في العراق ، كان من المناسب جداً مواجهة التحالف الأنجلوساكسوني

بـــ "أوروبا العجوز" القارية ، المناهضة للتدخل الأمريكي ، والأميل إلى تأييد الفلسطينيين ، والمؤكدة على سيادة الدول ، ولو كان ذلك في بعض الأحيان على حساب الديمقراطية . وهكذا كان يعترف لفرنسا بفضل مواصلة التقليد الديغولي للاستقلالية عن الولايات المتحدة . غير أن الأمور قد تغيرت جداً خلال ثلاث سنوات . فلقد انخرط الأوروبيون لوحدهم في صراع مع إيران حول برنامجها النووي ، ليجدوا أنفسهم في مقدمة من يسعى إلى متابعة إيران أمام مجلس الأمن ، في حين تلتزم الولايات المتحدة الحذر في خطابها . فلماذا إذن الاستغراب من أن يصب حزب الله وإيران الزيت على نار الرسوم الكاريكاتورية ؟

في أفغانستان ، تقوم قوات الحلف الأطلسي ، أي الجيش الأوروبي ، بتعويض الجيش الأمريكي ، وستجد نفسها في مواجهة مباشرة مع طالبان والقاعدة : وتحالف الأحزاب الباكستانية التي تتظاهر اليوم احتجاجاً على الرسوم الكاريكاتورية الدانمركية ، هي بالضبط التي تساند الطالبان والقاعدة . وفي لبنان ، اتخذت ، فجأة ، فرنسا ، وبالتالي أوروبا ، موقفاً حاداً جداً من الوجود السوري ، مما أثار حفيظة نظام بشار الأسد ؛ وهو يثأر اليوم بتنظيم الهجوم على السفارات خفية (فلا يتصور أن تنطلق اليوم بدمشق مظاهرة تلقائية وخارجة عن السيطرة) . غير أن التحول بخصوص فلسطين ، قد يكون صارخاً ، بشكل أكبر : فلقد فرضت أوروبا ، مجتمعة هذه المرة ، شروطاً قاسية لمواصلة مساعدتها ، بعد فوز حماس ، وهو ما سيء فهمه من طرف الكثير من الفلسطينيين ، الذين كانوا يتوقعون حياداً أكبر ؛ وهذا ما أدى إلى تجاوزات غرة ضد المؤسسات التمثيلية للاتحاد الأوروبي .

فعوض أن تقف على الحياد أو أن تنأى بنفسها تماماً عن القضية ، اتخذت أوروبا موقفاً بارزاً وتدخلياً في الشرق الأوسط ، تقترب من خلاله من الولايات المتحدة . وبعكس ما كان يحدث قبل ثلاث سنوات ، تتطلع الولايات المتحدة اليوم إلى مزيد من الحضور الأوروبي ، وخاصة وهي ترنو إلى انسحاب تدريجي من العراق . فهذا الحضور الكبير لأوروبا على الواجهة ، يؤدي بالتالي إلى توترات مع تحالف ملفق لأنظمة وحركات ، أضحى مسلمو أوروبا رهينة بين أيديهم .

وفي الواقع ، كانت هذه الاستراتيجية الهجومية مقررة ، منذ مبادرة السفراء العرب تجاه السلطات الدانماركية . فلقد حرصت الأنظمة العربية على الدوام ، بالفعل ، على أن يظل المهاجرون في أوروبا كتلة في الشتات ، يمكن تحريكها لخدمة القضايا الوطنية . فدول المغرب العربي ، تعتبر أن الجيل الثاني المولود بفرنسا ، يحتفظ تلقائيا بجنسية والديه . أما القنصليات فتعتبر دائماً نفسها وسيطاً لتدبير التوترات المتصلة بقضايا الإسلام ، ولقد بذلت جهداً كبيراً للتحكم في انتخابات المجلس الفرنسي للديانة الإسلامي CFCM . وتعتبر جامعة الأزهر بالقاهرة نفسها ، مرجعاً لتكوين الأئمة ، وإصدار الفتوى ، رافضة ، مثلاً ، المجلس الأوروبي للفتوى بلندن ، والذي يدافع عن فكرة قانون خاص بالأقلية الإسلامية . وباختصار ، تبذل الدول والمنظمات على حد سواء ، كل ما في وسعها ، لكي يظل مسلمو أوروبا ، خاضعين للهيمنة الشرق أوسطية ، وهذا بشكل واضح وصريح .

غير أن أغلبية مسلمي أوروبا تعاني ، بشكل متزايد ، من هذه الوصاية المثقلة : فمن المفيد ملاحظة أن التنظيمات الكبرى قد نأت بنفسها فعلاً عن إشكالية الرسوم الكاريكاتورية (ويكفي مراجعة موقع اتحاد المنظمات الإسلامية لفرنسا l'UOIF ، أو موقع com. oumma) . يجب إذن البحث عن مفتاح تدبير هذه التوترات التي لا بد من حصولها ، في معنى هذا الانفصال الحاصل بين إسلام أوروبا وأزمات الشرق الأوسط ، ومعاملة مسلمي أوروبا ، باعتبارهم مواطنين ، مثل ما هو حاصل مع المسيحيين واليهود ، ولو تطلب الأمر تذكير الجميع على الدوام بمبادئ حرية التعبير واللائكية . ويجب كذلك على الرأي العام الأوروبي كذلك أن يكون مدركاً لهذا التورط المتزايد لأوروبا في قضايا الشرق الأوسط الكبير ، وفلسطين وأفغانستان ، لأنه سيجعل كل من المؤسسات التمثيلية الدبلوماسية والمنظمات غير الحكومية ، وحتى مواطنين عاديين ، معرضين بشكل كبير لأي مكروه . فإذا وافقنا على أن يكون لأوروبا دور أكبر في أفغانستان أو لبنان ، فيجب علينا أن نتحمل العواقب . ونقول مرة أخرى ، بأن ما تحتاجه أوروبا هو فضاء حقيقي للنقاش السياسي .